

التمسك بالحق



حاجة الدعوة إلى الوعي والمعرفة ودعم الدعاة

هناك نموذجٌ من الناس قد لا يكون مؤهلاً بحسب ثقافته وموقعه للقيام بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، لأنَّ الدعوة إلى الله لا سيَّما في المجتمع الذي يحمل كثيراً من التحديات، تحتاج إلى المزيد من الثقافة والمعرفة، وهذا النموذج من إيمانه وصدقه قد لا يملك الإمكانات الذاتية العلمية للقيام بهذه المهمة، ولكنه يشعر بمسؤوليته في دعم الدعاة إلى الله وتقوية مواقعهم، وفي تشجيع الناس للالتفات حولهم، ومواجهة كلِّ الدعوات ضدَّهم.

وهذا ما نحتاجه في كلِّ مجال من مجالات الدعوة إلى الله، وفي كلِّ موقع من مواقع الإصلاح. فهناك مصلحون يدعون إلى الله، ولا بدَّ أن يكون هناك أناسٌ يؤيدونهم ويدعمونهم ويدفعون الضغوط التي يمكن أن تواجههم إليهم. فالإنسان الداعية إلى الله قد لا يملك القوة في ذاته بالمستوى الذي يستطيع أن يواجه فيه خصوم الدين وأعداء الله، لذا، علينا أن نلتفتَّ حوله، وهكذا إذا وجدنا جماعة من الناس تدعو إلى الله وتجاهد في سبيله، فالواجب يفرض علينا أن نقوِّيها وندعمها، وأن نقف ضدَّ الأساليب التي تحاول أن تضعفها.. فإذا لم نستطع الجهاد فنندعم المجاهدين، وإذا لم نقدر على الإصلاح، فلنقف مع المصلحين.

ويقول اﷻ سبحانه وتعالى: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (يس/ 20-21)، جاء هذا الرجل لينصح الناس باتباع جماعة تهدي إلى الخير، يُقال عن أفرادها بأنهم من تلامذة عيسى (ع)، حيث حدثنا اﷻ عنهم قبل هذه الآيات (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقُرْآنَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ) (يس/ 13)، لم يكونوا أنبياء، ولكنهم كانوا من تلاميذ عيسى (ع) كما يُقال، حيث حملوا رسالته إلى الناس (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَاٰهِيكُمْ مُّرْسَلُونَ) (يس/ 14)، جاءهم اثنان في البداية ولحق بهم ثالث، ولكن الموقف من دعوتهم كان سلبياً، حيث أن بعض الجماعات كانوا لا يتصورون الجمع بين الرسالة وبين بشرية الرسول، لأنهم يرون أن الرسول يجب أن يكون من الملائكة أو من الجن، والرسالة تعني العلاقة باﷻ، والبشر لا علاقة ولا تواصل لهم مع اﷻ سبحانه، لذلك (قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمِمَّا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) (يس/ 15)، وكان الرد عليهم: ليس لدينا ما نقدّمه على صدقنا من الشواهد الماديّة، ولكننا صادقون مقتنعون واثقون بدعوتنا (قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّنَا

إِلَيْكُمْ لَمْ تُرْسَلُونَ) (يس/ 16)، يمكنكم أن تسألونا وتناقشونا وتجاوزونا، أما أن ترفضونا بمجرد أنّه لم يعجبكم هذا الطرح الذي نقدّمه إليكم، فهذا ليس منطقاً (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (يس/ 17)، هذا البلاغ من الله بين أيديكم.. ولكنّ هذا المجتمع ليس مستعدّاً أن يحاور ويدخل في نقاش، باعتبار أن طبيعة أوضاعه التي انطلق فيها من دون قاعدة وأساس، تجعله يواجه كلّ وضع جديد وطرح جديد، بأسلوب القوة وبروحية التهديد، وما إلى ذلك (قَالُوا إِنْ تَطَايَرْنَا بِكُمْ لَتَنَلُنَّ لَكُمْ تَنَدُّهُمْ لَنَدْرَجَنَّكُمْ وَالْعِيسَى كُفُّوا عَنْ هَذِهِ الْمَقُولَاتِ الْجَدِيدَةِ سَنَرْجِعْكُمْ وَنُنْزِلْ بِكُمْ أَقْسَى الْقِصَاصِ) (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ تَسْلُكُونَهُ.. فليس الرُّسل هم الذين يجلبون التشاؤم للأُمَّة، ولكنّ الأوضاع السيئة التي تعيشها هي التي تجلب هذا الشعور. تشاؤمكم ينبع من داخلكم، من نقاط ضعفكم، من أخلاقكم السيئة، من تجاوزكم للحدود الطبيعية في تصرفاتكم ومواقفكم وتمسككم بكلّ ما يعود عليكم بالشرّ والنتائج السلبية..

النصح والإشفاق:

في خضمّ هذا الجوار جاء شخصٌ كان يكتّم إيمانه عن قومه أطلق نصيحته (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدْيَنَةِ رَجُلٌ يُسَمَّى قَالَ يَا قَوْمِ انَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * انَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (يس/ 20-21)، هؤلاء الدعاة لم يأتوا إليكم ليطلبوا مالاً وجاهاً أو ليحصلوا على امتيازات، وإنما جاؤواكم ليذكِّروكم بالله وليدلّوكم إلى طريقه، وليعزّوكم كيف تحرّكون حياتكم في خطّ المسؤولية والتوازن (انَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا) وهو بحديثه هذا يدعم هؤلاء المرسلين موطئاً موقعه ووجاهته في قومه من أجل إيقاف الحملة الظالمة عليهم، وليجدوا أنّ هناك صوتاً آخر يختلف عن الأصوات الحاقدة والمهدّدة والمتوّدة التي تنطلق من أفواه هؤلاء المتمردين.. تكلّم هذا الرجل بكلامه، وكأنه عاد إلى نفسه متأملاً في محاولة منهم لدفعهم إلى التأمل أيضاً (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس/ 22)، كأنّه يريد أن يقول لهم: ما لكم لا تعبدون الله، فهؤلاء المرسلون يدعونكم إلى عبادة الله الذي فطركم وخلقكم وأعطاكم كلّ شيء، إنّهم لا يدعونكم إلى عبادة مَنْ لا يملك لنفسه نفعاً أو ضرراً، وإنما يدعونكم إلى مَنْ هو سرّ وجودكم.. وهو بهذا يعبر عن هذه المسألة وكأنّه يناجي نفسه ليدفع الآخرين إلى الاستغراب، فينتقل من حال الخطاب إلى حال التحدّث مع نفسه ليجذبهم نحو التأمل بالمسألة أكثر (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي)، هو الذي خلّقني (وَالِلَّهِ تُرْجَعُونَ) أرجع وترجعون إليه سبحانه ليحاسبنا جميعاً على أعمالنا (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ) (يس/ 23)، هل يمكن أن أتخذ آلهة من دون الله؟ لا بدّ للآلهة من امتلاك القوة ليستطيعوا دفع الضّر عن الناس الذين يتبعونهم أن يجلبوا النفع لهم. أما هذه الآلهة التي تعبدونها، فلو فرضنا أنّ الله أرادني بضراً، فإنّها لا تستطيع أن تكشف الضرّ عني، وأيّّة آلهة، هذه الآلهة التي لا تملك الدفاع عن أتباعها في مقابل ربّ قادر يريد أن يضربها؟ (إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (يس/ 24)، وهنا يحاول أن يثير الشكّ في أنفسهم ليزلزل عقائدهم المنحرفة، ويدفعهم للتفكير فيما يحدث به نفسه وفيما يقوله.

إعلان الموقف الرسالي:

وبعد أن أثار فيهم الحيرة والشكّ يعلن موقفه، يتوجّه إلى الرسل وإليهم (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ) (يس/ 25)، أعلنت انتمائي لهؤلاء الرسل، وليرضَ مَنْ يرضى، وليغضب مَنْ يغضب، لأنّ هذه هي قناعتي، ولذلك أعلن التحدي (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ) فإنّني أعلن موقفني من دون خوفٍ من أحد.. وهذا الموقف قد يحتاج أن يتخذه كلّ واحد منا عندما يعيش في مجتمع ينتشر فيه الضلال والفسق والفجور، ويُقبل فيه الناس على خذلان المؤمنين والوقوف ضدّ الدّعاة إلى الله، بحيث أنّ الصوت الوحيد، هو صوت الفجور والانحراف، هنا على كلّ واحد أن يرفع للحقّ صوتاً، بالأسلوب الواعي الذي يحسب حسابات الأشياء بدقّة، لأنّ المجتمع إذا رفض الهدى وتبنّى الضلال، ولم يرتفع صوتٌ يخترق هذا الواقع، فإنّ معنى ذلك أنّ الضلال سوف ينتشر، وأنّ الحقّ سوف يضعف ويذول، لأنّ الحقّ إنما يقوى بالناس وبالمواقف التي تنطلق من قاعدة الحقّ، فإذا لم يكن للحقّ أنصار يدافعون عنه ومواقع تتركّز في قلب المجتمع، فإنّ الساحة سوف تكون للباطل، والله تعالى لا يريد ذلك، بل لا بدّ أن يقاوم هذا الظلام نقطة نور، ويخترق هذا الواقع كلمة حقّ.

وهذا النموذج نقدّمه القرآن لنا، لأنّ الله سبحانه يريد أن تتعرّز هذه الروحية عند المؤمن، حيث

يريد له أن يعيش همّ قومه ولو كانوا ضالين، فيفكّر عندما يحصل على الرحمة التي وهبه الله إياها، كيف أن قومه لم يشاركوه في هذه الرحمة ولم يهتدوا ويسيروا في الخطّ الصحيح.

المواقف المشرفة في الدنيا جزاؤها الجنّة:

وتمرّ الأيام ويموت هذا الإنسان ويقف بين يديّ الله سبحانه، فيأتيه النداء: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) فينال النعمة الإلهية على موقفه المشرف في الدنيا (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ) (يس/ 26)، إنّه يتمنّى لو أن قومه يعلمون الحقيقة التي تدفعهم إلى الإيمان (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) (يس/ 27)، ليتعرّفوا أن طريق الهدى يؤدّي إلى الجنّة، وطريق الضلال يؤدّي إلى النار (وَمَا أَزِلُّنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ) (يس/ 28)، لا تحتاج المسألة بأن يرسل الله لهم جيشاً من الملائكة ليقضوا عليهم، فحكمة الله تعالى تقتضي أحياناً أن يمدّ للكافرين والظالمين (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) (يس/ 29)، لا يحتاج الأمر إلا أن يقول كن فيكون، وكلّ شيء خاضع لمشيئته سبحانه، وهكذا نقرأ في الدعاء: "فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة وإرادتك دون نهيك منزجرة" فمشيئة الله هي التي تعطي للوجود معناه، وتعطي للعدم واقعه. ومشية الله هنا قضت أن يموتوا بصرخة واحدة (فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) فانطفأت نار شبابهم وحيويتهم وحركتهم، هذه النار التي مثّلت وجودهم انطفأت مباشرة.

ثم يتحدّث سبحانه عن الناس بأسلوب العطف والإشفاق (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (يس/ 30)، يا حسرة عليهم لماذا يتصرّفون بهذه الطريقة؟ لماذا يكون ردّ فعلهم على الرسول من خلال إحساسهم باستكبارهم وقوّةهم وبضعف الرسول؟ لماذا لا يواجهون الموقف بالتفكير والدراسة والحوار، بل بالتحدّي والاستهزاء؟ إنهم ليسوا أول من أهلكهم الله بظلمهم (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) (يس/ 31)، ولن يكونوا آخر من يهلكهم، فلماذا لم يعتبروا بمن هلك قبلهم؟ (وَلَنْ يَنْصُرَهُمْ لَمَّا جَمِعُوا لِغَايَتِنَا مُحْضَرُونَ) (يس/ 32)، فهم ومن قبلهم ومن سيجيء بعدهم، ومنذ خلق الله الأرض ومن عليها إلى أن يرثها سيعودون إلى الله للحساب.

دليل واقعي:

وهؤلاء أينكرون البعث والمعاد؟ فهم إذا أرادوا أن يفهموا المسألة على الطبيعة، فإنهم لا يحتاجون إلى برهان وتحليل وفلسفة، بل ليفكروا في خلق الله (وَأَيُّهُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَايْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) (يس/ 33)، ألم تكن الأرض فراغاً، لا نبتة فيها ولا خضرة ولا حياة، فكيف اهتزت وربّت وأنبتت من كلّ زوج بهيج.. إذا أرادوا أن يعرفوا كيف يحيي الله الموتى، فلينظروا كيف يحيي الله الأرض بعد موتها، فللأرض حياة بحسب طبيعتها، وللإنسان حياة بحسب طبيعته، فالقادر على أن يعطي الحياة للأرض بعد الموت، قادر أن يعطي للجسد حياته بعد الموت.

إذاً (وَأَيُّهُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَايْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)، أحييناها وأنعمنا عليكم من خلال حركة الحياة في الأرض، ما أنبتت من حبّ يشكّل الغذاء لكم (وَجَعَلْنَا فِيهَا حَبًّا وَنَخِيلًا وَأَعْنَابًا وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) (يس/ 34)، فكلّ هذه النعم لكم (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (يس/ 35)، ألا يستحقّ تعالى الشكر منهم؟ وشكر الله، ليس كلمة تقال، ولكن شكر الله، أن يسخر الإنسان ما أنعم به عليه في طاعة الله، وألا يعصي الله بما أنعم به عليه، وقد قال أمير المؤمنين عليّ (ع): "أقلّ ما يلزمكم الله ألا تستعينوا بنعمه على معاصيه".